الهمسات

وددت أن أعرفك بأوديلون ريدون، فهو صديقى منذ أن رأيت ثلاثًا من لوحاته. وأولى هذه اللوحات هى «الليل» (١٩١٠-١٩١١) حيث تبعث العتمة الزاحفة الخيالات من رقادها، فتبدو الوجوه زهورًا وفراشات مجنحة، رهيفة تتماوج فى الفضاء تماوجًا منغما. هذا الفنان البارع فى صنعته، لا تكبله صنعته ولا تثقل كاهله، بل على العكس تبدو أدواته مطواعة تلبى لاإملاءات الروح فحسب بل وهمساتها. وربما أحسنا صنعًا لوسمينا هذه اللوحة «همهمات الغسق» إذ لا تلبث عيوننا أن تنقل إلى أعماقنا ترانيم العتمة الزاحفة على الكون، لتحرر الروح من قيود الوعى الصارم، وتمهد لمملكة الظلام حيث ترتع الأطياف والخيالات والأسرار المبهمة. إنه عالم من الانطلاق، فتتحرر فرشاة الفنان من صرامة التعاليم الفنية، وتسبح هائمة فى أجواء الفنان، حيث تترك النفس على سجيتها، تتراقص مع هبات النسيمات، وتنتشى بأريج الزهور، وتسبح مع السحب الخفيفة المدللة. ألوانه نفحات، وهى شحيحة وعريضة الثراء معًا. أما خطوطه، فهى حركات إيقاعية من راقصة باليه فى فضاء أثيرى، ولكن مالى أدلق إعجابى كله على لوحة واحدة، وهناك لريدون لوحات ولوحات، واللوحة الثانية هى بورتريه لفيوليت هيمان (١٩٠٩)، ونحن لا نعرف فيوليت

شخصيًا، بل وحتى الذين يعرفونها سوف يتبددون ويندثرون، كما ستندثر وتزول فيوليت نفسها، ولكن اللوحة التى رسمها لها ريدون ستبقى تطالعنا كعمل من أبهى أعمال الفن الحديث، وأكثرها وضاءة ونضارة، سيبقى ذلك الوجه الوسيم فى وضعه الجانبى، ببشرته الملائكية الشاحبة، وثروة الشعر الكستنائى المشدود إلى الخلف، والمنهدل على الظهر حتى يلمس حافة الكرسى الذى جلست عليه فيوليت بثوبها الفاتح الخضرة، ودانتلته الملفوفة حول الرقبة السامقة، والنظرة السارحة فى الفضاء أمامها، ولا يلبث هذا الفضاء أن يعبق بأريج رياحين وورود شتى، براعم مقفلة وزهور متفتحة، تزهو جميعًا فى مهرجان بديع من الألوان، ربما كانت الفتاة تجلس فى حديقة تنعم بثراء نباتها، وربما أيضا كان ذلك الثراء ثراء روحها استشفه الفنان الذى لا يجوس فى هذا العالم بحواسه وفكره، بل بحدسه وروحه على الأخص، ويقرأ فى الكائنات لغة سطرتها يد خفية ، رموزًا وإيماءات إلى عالم يتعدى المادة، وينطبع عليها، وإن كان ليس هو العالم المادى ولا هو منه، مثل أوتار قيثارة تعزف عليها الأنامل ما ليس من هذه الأوتار، ولا حتى هى القيثارة ذاتها، أما اللوحة الثالثة التى عقدت بينى وبين أوديلون ريدون أواصر الحب فهى لوحته «الحصان المجنح منتصرًا» (عام ١٩٠٧)، وقد كان هذا الحصان الذى يدعى فى الأساطير بيغاسوس رمزًا للانتفاضة الخلاقة محور انشغالات الفنان الأسطورية التى بدأت منذ عام ١٩٠٠، وهو فى لوحته هذه التى صورها حوالى عام ١٩٠٧ يبهرنا بالجناحين الأخضرين اللذين يرفرفان فى قوة ومضاء ليتضادا مع الهالات الحمراء بأعلى اللوحة، بينما رنت عينا الجواد النبيل من عليائه إلى الوحش الذى رقد فى الهاوية يتلوى مهزومًا مندحرًا.

سوف تسألنى من هو أوديلون ريدون هذا؟ وأنت محق فيما تسأل لأن هذا المصور الفرنسى الذى ولد فى بوردو عام ١٨٤٠، ومات فى باريس عام ١٩١٦ لم يكتب عنه فى العربية إلا لماما، برغم أن فى جوهر أعماله نبضًا شرقيًا يفيض عليها مسحة من الصوفية وعلى الأخص فى لوحته «الصمت» التى صورها عام ١٩١١.

وريدون من جيل الانطباعيين بل هو من مواليد ذات السنة التى ولد فيها رائد الانطباعية كلودمونيه، ولكنه رفض أن ينضم إليها، لأنه اعتبرها ضيقة الأفق، وآثر أن يختط لنفسه طريقًا خاصًا به، فمنذ البداية تمسك بأهمية الدور الذى يمكن أن يؤديه الخيال فى عملية الإبداع الفنى، وفى عام ١٨٦٨ وكان كوربيه وحركته الواقعية الطبيعية (الناتورالية) على قمة النجاح الفنى، لم يتردد ريدون فى أن يدلى برأيه قائلًا: «إن أولئك الذين يرون الاكتفاء بتسجيل ما تراه العين يحكمون على أنفسهم بالبقاء مقيدين إلى مستوى مثالى أدنى، وقد أثبت أساتذة الفن القدامى أن الفنان متى سيطر على أدواته، ووجد فى الطبيعة عما يريد التعبير عنه، يضحى حرًا فى أن يلتقط موضوعاته من التاريخ أو الشعر أو يبحث عنها فى خياله أيضا». وأعلن ريدون قائلًا: إنه بينما اعترف بضرورة الشىء المرئى كأساس ودعامة، فإننى أجد الفن الأصيل فى الحقيقة المستشعرة. » ما رأيك يا صديقى، فى هذه الآراء، وفى وقت كانت الواقعية «الطبيعية» و«الانطباعية» مثل النار التى استشرت فى الهشيم؟ حقًا، إن «الواقع» إذا لم يدرك بالشعور، فإنه يظل موضوعًا بمنأى عن الفن، وقد ظل ريدون متمسكًا بمسلماته هذه حتى النهاية، وعن كثب درس الطبيعة التى أحبها،

ولكن رسومه الصارمة الدقيقة قادته إلى أن ينمى لنفسه أسلوبًا شخصيًا يتناسب مع ذلك العالم الغريب الذى انغمس فيه، وهو عالم أحلامه الخاصة، ورويدا رويدا امتزج الواقع المرئى برؤاه، وتفاعل الواقع الملموس بالواقع المستشعر، وقد عبر ريدون عن ذلك فى خطاب له إلى زميل، فيقول. لقد استشعرت على الدوام الحاجة إلى أن أنقل عن الطبيعة الكائنات الصغيرة، الزهيدة والمتفردة، وبعد أن أجهد إرادتى لتصوير ورقة شجر، أو حجر، أو غصن، أو جزء من حائط قديم، أجدنى قد شحنت بالرغبة فى أن أبدع شيئًا خياليًا، وهكذا تصبح الطبيعة المرتضاة والمطورة بهذا الفهم مصدرًا لإلهامى، وقد كان أفضل أعمالى ما انحدر من مثل هذه المعالجة.

ويعجبنى ريدون إذ توصل إلى حقيقة عميقة الغور معترفًا بأن لخيالاته جذورًا فى معاينة «الطبيعة»، وأن ابتكاراته الخارقة، ورؤاه الشيطانية والملائكية تنتمى إلى عالم لم ينفصل قط عن الواقع، إن أصالته تتمثل فى جعل مخلوقات غير معقولة تحيا وفقًا للقوانين المعقولة، وفى وضعه «منطق الممكن» فى خدمة اللامرئى، وهكذا نجح ريدون فى ترجمة عالم الأحلام المقلق الذى يشارك على أى حال الواقع إلى لغة تشكيلية من خطوط ملغزة، وهارمونيا لونية رهيفة، إنه لم يكن مكترثًا بالبحث عن المعانى بل اكترث قبل كل شىء بأن يعبر عن نفسه بألوان باذخة قوية أو تضاديات أريبة بين الأبيض والأسود.

ولم تأت الشهرة إلى ريدون إلا متأخرة، وقد مضى يعمل بجد وبعيدًا عن الأضواء غير مكترث بأن يلفت الأنظار إليه، ولم ينشر أول ألبوم من

أعمال الحفر لأوديلون ريدون وكان بعنـوان«فيما يراه النائم» إلا عام ١٨٧٩، وكان الفنان آنذاك فى الأربعين من عمره. وأعقب ذلك معرضه الأول عام ١٨٨١، ثم الثانى عام ١٨٨٢ ولم يلتفت إلى أعماله كثيرًا، ولكن ما إن قدر «للرمزية» فى الأدب أن تلمع عام ١٨٨٦ بفضل رائدها مالارميه حتى بدأ اسم ريدون يلمع بدوره، وسرعان ما اكتشف سائر شعراء الحركة أوجه شبه كثيرة بين عطاءاتهم وبين لوحات ريدون، وفى خطاب من مالارميه إلى صديقه ريدون أبدى كم أعطته دراسة أعماله من متعة. قائلًا إن الانطباع الذى تعطيه هذه اللوحات لا يتناقص أبدًا، بل هو يزداد توغلًا فى النفس، وذلك بفضل صدق رؤاك وقدرتك على نقلها إلى الآخرين.

ولكن مهلًا، من المجحف بعبقرية ريدون أن نقول إنها كانت بحاجة إلى الرمزية كى تأتى لنصرتها، وفض اللثام عنها، ذلك أن الاعتراف بريدون لم يقتصر على رجال الأدب يعبرون عن ارتياحهم إلى لوحاته، بل إن الجيل الجديد من المصورين ما لبث أن سارع إلى الاعتراف بأهميته بالنسبة لهم. فقد كان جوجان على سبيل المثال فخورًا بصداقته، ولم يأل إميل برنار جهدًا للتعريف بريدون والدعاية إلى لوحاته، كما جاء أعضاء جماعة الأنبياء وهم بونار وفويار وموريس دنيس إليه يستشيرونه، ويطلبون منه النصح والهداية، كما هام ماتيس إعجابا بألوان ريدون، لكن أهمية ريدون كرائد من رواد الفن الحديث لم تتجل إلا بعد وفاته عام ١٩١٦ عندما فجر السيرياليون دعوتهم التشكيلية.

والحق أن فن ريدون لا ينفد، والمتعة بأعماله لا تنضب، وكما فى أعمال

جو يا وديلاكر وا اللذين أعجب بهما ريدون دون تقليدهما يوجد فى أعماله جانب ظاهر مدرك سهل التقاطه، على أن هناك جانبًا آخر فى هذه الأعمال لا يمكن إدراكه، هناك جانب خفى، شاعرية متأصلة، وأستاذية فى السيطرة والتلوين، وتناسق متقن لا يمكن إدراكه إلا للمدربين العارفين بأصول الصنعة وسر الإبداع الرصين.

والحق أننى أحب أن أقف كثيرًا أمام لوحات الزهور عند ريدون، إنها قصائد شعر ملونة. بل هى أغنيات تداعب العين وتمضى تتوغل بعيدًا إلى أعماق القلب، فيبقى منها انطباع لا ينسى، وقلما قدر فنان على البلوغ بفرشاته إليه.